

الطب بين الخطاب العلمي والممارسة الثقافية - مقارنة كرونولوجية وأثنولوجية -

سعدية جديلي⁽¹⁾ أ.د. يوسف سعدون⁽²⁾

1- قسم علم الاجتماع، جامعة باجي مختار - عنابة، doc.sam2019@gmail.com

2- قسم علم الاجتماع، جامعة باجي مختار - عنابة، youcef_saadoun@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2020/02/17

تاريخ المراجعة: 2019/11/05

تاريخ الإيداع: 2019/04/14

ملخص

شكّل الطب كمجال من مجالات النشاط البشري محور اهتمام الأبحاث السوسولوجية والانثروبولوجية على حد سواء. ذلك أن الطرح السوسولوجي لموضوعات الطب والتي تتمحور حول قضايا الصحة، يتجاوز ذلك الإطار التفسيري التقليدي المرتكز عليه النموذج الحيوي القائم عليه الطب الحديث والرسمي، إلى طرح هذه القضايا على مستوى الفضاء الاجتماعي والثقافي. بذلك يغدو الطب كمجال للبحث السوسولوجي معنيا بدراسة الأبعاد الاجتماعية والثقافية للصحة والمرضى والعلاج.

الكلمات المفاتيح: ثقافة، ثقافة علاجية، عملية ثقافية، أبعاد سوسيو ثقافية، طب رسمي، طب شعبي، علاج.

*La médecine entre le discours savant et la pratique culturelle
Approche chronologique et anthropologique*

Résumé

En tant qu'activité humaine, la médecine constitue un centre d'intérêt tant pour les recherches sociologiques qu'anthropologiques. En effet, l'étude sociologique des thèmes se rapportant à la santé dépasse le cadre explicatif classique auquel se réfère la médecine moderne officielle pour poser les problèmes au niveau de l'espace sociale et culturelle. De là, la médecine en tant que domaine de recherche sociologique sera concernée par les dimensions sociales et culturelles des thèmes de la santé, de la maladie et du traitement.

Mots-clés: Culture, culture du traitement, processus culturel, dimensions socioculturelles, médecine officielle, médecine populaire, traitement.

*Medicine between Scientific Discourse and Cultural Practice
Chronological and Anthropological Approach*

Abstract

Medicine has been a subject of interest for sociological and anthropological researches. The sociological approach in subjects related to medicine presents issues relevant to medical practice at a social and cultural level. Hence, medicine, as a field of sociological research, is concerned with the study of the socio-cultural dimension of health, disease and treatment.

Keywords: Culture, health education, socio-cultural dimension, formal medicine, folk medicine, disease, treatment.

مقدمة

إن الاهتمام السوسولوجي بعلم الطب سواء بالنظر فيه كلبنة ضمن البناء الاجتماعي أو كممارسة عبر الفضاء الاجتماعي يقتضي وللفهم الجيد النظر في تاريخه ضمن مسيرة الإنسان الأنثروبولوجية للوقوف على الميكانيزمات الفاعلة في تكون الممارسة الطبية العلاجية وعناصر الظاهرة الطبية لرصد الأبعاد السوسيوثقافية لكل من الصحة والمرض والعلاج وامتدادها عبر واقع الثقافة العلاجية لمختلف الشعوب والجماعات وتباين الحضارات، ليطمحور هدف المسعى السوسيوأنثروبولوجي في قراءته لموضوع الطب على تبيان اجتماعية وثقافية مفاهيم كل من الصحة، المرض، الطب والعلاج وفهم هذا الأخير في إطاره التفاعلي ضمن السياق الاجتماعي والكلية السوسيوثقافية؛ ما من شأنه تعميق فهم حقيقة الظاهرة الطبية العلاجية وما ارتبط بها من مفاهيم الصحة والمرض والعلاج والخروج بها من ضيق تفسير الأفق البيولوجي إلى امتداد أفق الفهم الثقافي للنظر لها كعمليات اجتماعية، ومنه الفهم الأعمق للإنسان والثقافة والمجتمع.

الإشكالية:

عندما يُرفع الخطاب الأنثروبولوجي يُقارب الظواهر والأشياء، ويسائل الموضوعات ويتحرى فهم الإشكالات، فهو بذلك يطرح نوعاً من القراءة الانعكاسية للذات وهي تُشيد عوالمها من خلال هندستها للاجتماعي Social وقولبتها للثقافي Culturel، ومنه تأسيسها للمشروع الحضاري من خلال إيجادها لأسلوب الحياة Style de vie عبر ما تُفعله من ميكانيزمات الفاعلية (عملية) الثقافية processus Culturel كمقدرة للإنسان كونه كائناً ثقافياً، وهذا ما يتجسد ويعمق عند التأمل في الطمّوح الإنساني لهذه الذات في التغلب على الموت باعتباره موضوعاً أساسياً للقلق trace، ليبرز في هذا السياق الحديث عن معضلة المرض maladie وما ارتبط به من معاناة وألم، فكانت الحاجة والرغبة في الشفاء وتأمين الصحة هي الدافع الأساس لبروز الفعل الطبي ومنه علم الطب كاستجابة ثقافية.

ففي سياق الطرح السوسيوأنثروبولوجي واهتمامه بقضايا الصحة والمرض يُلتفت إلى الطب كتاريخ، علم ممارسة وكفن ليساعل كفضاء ممارساتي قائم في ظل كيان اجتماعي ثقافي Socioculturel له العديد من القوى الفاعلة التي تنتظم سير الحياة من خلال البنى السوسيو ثقافية، والتي تطرح بدورها ميكانيزمات تعمل على بعث مختلف صور وأشكال الواقع الاجتماعي بما فيه الجانب المتعلق بالصحة والمرض حيث تتشكل أرضية الممارسة الطبية l'exercice médicale والتي يبرز فيها تقابل الطب الرسمي العلمي أمام الثقافة الاستنطابية الشعبية الأمر الذي يجعل موضوع المرض والصحة ومنه العلاج يتجاوز دائرة العلم الطبي إلى دائرة الثقافة لتصبح آلية قراءة المرض ومنه طرح العلاج عملية معقدة تتباين في مستوى طرحها بحسب التنوع الثقافي الذي يميز الجماعات البشرية بتباين كياناتها وتركيباتها الجغرافية الديموغرافية والثقافية .

وهذا التحول والانتقال في قراءة الطب ومتلازماته من الصحة والعلاج والمرض من مستوى البيولوجي إلى المستوى الثقافي هو ما من شأنه توسيع المفهوم التقليدي للصحة والمرض والعلاج، أين يمكن أن يكون للثقافة دور وأثر في مستوى تطوير النسق أو الكيان الطبي développement du cors médicale⁽¹⁾.

ففهم الطب من الزاوية السوسيوأنثروبولوجية يتجاوز قراءته ضمن العلوم الطبية هذه الأخيرة التي كانت لها ظروف نشأة خاضعة ومرتبطة بشروطيات العلم المؤطر نظرية ومنهجاً ضمن مدارس فكرية، محكومة بسياقاتها التاريخية ومن بين تلك الشروطيات العلمية للطب العلمي Médecine savant نذكر على سبيل المثال التعزيز

التجريبي للدوغماتية الوضعية في الطب العلمي المثبت في أعمال "كلود برنار" الذي يؤكد أن الفصل الذي كان سائدا بين الفيزيولوجيا والباثولوجيا *pathologie* والعلاج هو فصل يُعد من مخلفات المرحلة ما قبل العلمية *préscientifique* من تاريخ الطب، أما الآن بالنسبة للعالم فلا فرق بين الطب والفيزيولوجيا، لأن الطب أخذ طريقه نحو التأسيس كعلم عن طريق اتخاذ الفيزيولوجيا كأرضية انطلاق سواء في البحث أو التشخيص أو التنبؤ أو العلاج لتكون الفيزيولوجيا هي القاعدة العلمية للطب.

وبناء على ما سبق من إشارة جزئية تقرب من مستوى الفهم آلية بناء وتشكل النموذج الطبي تتضح معالم الخلفية التفسيرية المرتكز عليها علم الطب في مقارنته لموضوعات الصحة والمرض والعلاج وكمثال يطرح: يُنظر إلى المرض كونه ليس إلا مجرد تغير كمي في الحالة العادية أو السوية وهو التغير الذي يفهم غالبا من طرف الطب الوضعي، على أنه اضطراب عرضي مؤقت لا يلبث أن يعود إلى حالته الابتدائية الأولى لأنها حالة التوازن والثبات...

وهذا الاعتماد المقارباتي في الفكر الطبي حسب ما طرحه إستمبولوجيا العلوم الطبية له انعكاساته على هذا العلم في جانبيه المنهجي والعلاجي، حيث إن رد واعتبار المرض تغيرا فسيولوجيا وإنكار وجود ذاتية له وكيان مستقل، وحالة لها قوانينها يُلغي الطب كعلم ويلحقه بالفيزيولوجيا مباشرة، إلى جانب إلغاء الأنسنة *Déshumaniser* التي تميز الطب منذ أبوقراط واليمين الطبي الأبوقراطي⁽²⁾ الذي يجعل الطب مهنة أخلاقية بالدرجة الأولى لأنه يتعامل مع الحياة وأعمق منه يتعامل مع الإنسان وليس فقط مع الجسد (المريض)، بالتالي فالمرض قبل وبعد كونه تغيرا فسيولوجيا واضطرابا في العضوية الحية هو في العمق تجربة وجودية معاشة تترجم تجاوزا لحالة اللاسواء، الألم والمعاناة، بالتالي تقتضي الضرورة المترصدة تحقيق أهداف علم الطب والممارسة الطبية، عوض الاهتمام بالمرض، الاهتمام بالمريض وهو ما تنبني عليه كذلك أهمية القراءة السوسيولوجية والانتروبولوجية على حد سواء لهذا الموضوع (الطب)، أهمية تنبثق من محور انشغاله المتمثل في (الإنسان) وهو يعيش حالة المرض، ليتعمق مستوى الفهم للموضوع بتجاوز طرحه كمعطى علمي ضمن الإطار الفيزيولوجي والبيولوجي ومساءلته ضمن الواقعة الاجتماعية والكلية السوسوثقافية للجماعة.

فالإنسان الذي واجه معضلة المرض قبل أن يتصدى له بتفكيره العلمي البرهاني واجهه برصيد ثقافي يحمل المعتقد واللاهوت والحلم والأسطورة والخرافة والخبرات والتجارب والسحر والشعوذة، ومزيجا فكريا جدّ معقد يبني على نظرة مستبطنة للكسومولوجيا والكون، ليظل هذا الرصيد الثقافي وهذه النظرة المستبطنة والقارة في عمق البنى الذهنية للبشرية باعثة لمستويات الإدراك الواعي واللاواعي للإنسان وهو يخبر الحياة بمختلف مظاهرها بالتالي تخضع لها - لهذا الرصيد الثقافي والنظرة المستبطنة - كل التجارب الوجودية التي يعيشها الإنسان وعلى رأسها تجربة المرض، ليترجم من خلال ذلك الطب مسيرة الإنسان تحت مظلة الثقافة، حيث يخلق الأزمة يعيشها ثم يتجاوزها معبرا عن إبداعيته، وهو ما يعكسه تاريخه الانتروبولوجي في عيشه لتجربة المرض، الذي كان دافعا أساسيا في ظهور علم الطب كملح حضاري يُترجم مرحلية تقدم العقل البشري عبر ممارسة الفكر العلمي في مساءلة ومواجهة المرض هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ليعبر الطب عن روح الجماعة واستمراريتها في ثقافتها ومن خلالها عبر استنادها لتراثها الشعبي وإحيائه بتوظيفه في مواجهة معضلة المرض.

وأمام هذا الطرح المتعلق بموضوع الطب يشتد الفضول العلمي المعرفي لیساءل هذا المجال من الفكر والحياة بين دائرتي العلم والثقافة أو بين الخطاب العلمي والممارسة الثقافية ليُطرح الإشكال التالي:

ماهي أبرز المحطات التاريخية للاهتمام الطبي عبر الفكر الاجتماعي والانتروبولوجي؟

وماهي مختلف صورته وأشكاله التي أنتجها الإنسان عبر ممارسته الثقافية على مر التاريخ؟

- إن كتابة تاريخ علم من العلوم من أصعب الأعمال، ناهيك عن أن يكون هذا العلم هو "علم الطب" فكان اهتمام البحث في البدايات الأولى لهذا المجال (الطب) من النشاط البشري مسألة جدّ معقدة من ناحية تفاصيلها التاريخية والانتروبولوجية؛ فالحديث عن الطب قبل العرض له كعلم مؤسس موضوعاً ومنهجاً، تجد لزاماً الحديث عنه كتقافة بالتالي عن الإنسان الذي كانت رغبته في الحياة مدفوعة بوجود الألم، أو وجود عيب ما في المظهر أو اختلال وظيفة من وظائف الجسم ليختلف بذلك تقدير الأنماط المرضية باختلاف المراحل التاريخية وكذا الثقافات والأديان⁽³⁾.

فما هي ملامح هذا الفكر (الطبي) مع الإنسان الأول؟

لعدم توافر النصوص المكتوبة عن إنسان ما قبل التاريخ طرحت الدراسات التاريخية في حديثها عن الأمراض والطب افتراضات وقرارات مبنية على ما توفره الحفريات ومعلومات يطرحها علماء الباليونولوجي .

أولاً: مرحلة ما قبل التاريخ:

1- الباليونولوجي والباليوباثولوجي:⁽¹⁾ **"PALIONOHOLOGIE ET LA PALIOPATHOLOGIE"**

من خلال هذين العلمين تُدرس أمراض إنسان ما قبل التاريخ من خلال العظام المحفوظة في البقاع المختلفة فبغير فحصها تُحدد بعض الأمراض التي عرفها الأجداد وإلى جانبه معرفة نمط الحياة الذي كان سائداً والمفترض أنها كانت على مستوى من القساوة والشدة في ظروف العيش ما يترتب عليه حالات صحية صعبة وأنماط أمراض كان مسئولاً عنها نمط الغذاء والسكن والملبس والمناخ، فكان لأسلوب الحياة انعكاس على نوعية الأمراض السائدة آنذاك ومنها "كسور العظام الطويلة، أو العمود الفقري أو الحوض" وإصابات حادة للمفاصل وهو ما يحمل على الاستنتاج - بحسب التخمينات التاريخية المستندة لمناهج البحث الأثري والمدارس التطورية التاريخية - كون طبيعة الشكاوى في تلك المرحلة كانت متعلقة بالحركة المسببة لآلام مفصلية موقعة للشلل وانتفاخات في أجزاء متفرقة من الجسم⁽⁴⁾ إضافة لأمراض الدم الوراثية والأمراض السرطانية أو السرطانات les cancers التي عادة ما ينتج عنها انحطاط القوى وحتى انحطاط النوع إلى جانب بروز الأمراض المتنقلة بالعدوى les maladies infectieuses، وما تعلق بالجهاز التنفسي وأخرى بالقلب . كما دلّت بقايا الفكوك على أمراض اللثة والأسنان، وكان النسيج العظمي المادة الأساسية التي تعتمد عليها دراسة الأمراض القديمة عبر تمييزه وتصويره بواسطة الكربون المشع C 14 إلى جانب وسائل أخرى حديثة قد تُمكن من فحص الأحشاء، وربما في بعض الأحيان فحص البروتين الداخل في تركيبها وربما تحليل فصيلة الدم⁽⁵⁾ لأناس ماتوا منذ آلاف السنين.

والحديث عن المرض والعلاج عند الإنسان الأول يظل محتشماً رغم اجتهادات علم الحفريات القديمة في القرن 20 الميلادي الذي حاول رسم صورة لإنسان ما قبل التاريخ وآلياته في التكيف مع الطبيعة والعرض من خلال هذه العلوم والمناهج عبر مادتها الأركيولوجية للحديث عن صورة ونمط الحياة، تكمن وظائفه في معرفة مختلف العوامل الأيكولوجية والثقافية المسؤولة عن حدوث المرض، وهذا الاهتمام على قدر من الأهمية حتى في البحوث الحديثة والمعاصرة، وهو ما يُترجم من خلال اهتمامات علم الأوبئة المعاصر *épidémiologie*، فهذه الأبحاث تُمكن من معرفة العوامل البيئية المتعلقة بأسلوب الحياة ومنه فهم أسباب المرض؛ وهذا النهج معتمد من طرف القدامى وعلى رأسهم الطبيب اليوناني أبوقراط، الذي يقول "على من يرغب في البحث الصحيح في عالم الطب أن

ينظر بعين الاعتبار في المقام الأول في فصول السنة والآثار التي يحدثها كل منها ثم بعدها إلى الرياح الساخنة والباردة وشرق الشمس والاتجاهات والمياه المستعملة في المدينة والنظر في الأرض إن كانت جرداء أو مكسوة السخ والنظر في الأسلوب الذي يعيش به السكان والأنشطة التي يمارسونها، هل هم مغرمون بالشراب وشرهون للطعام، هل يركنون إلى الكسل أم مغرمون بالترييض والعمل الشاق⁽⁶⁾.

ومن خلال كلمات أبو الطب أبوقراط تُستشف الصلة بين علم الطب أو فكر الطب بقضاياها والثقافة لتترجم بدورها تخلص هذا العلم من النزعة الاختزالية البيولوجية *réductionnisme biologique*⁽⁷⁾ التي سيعرفها تاريخ هذا العلم في مراحل متقدمة، تهيمن على تفسيراته للمرض، ومنها انعكاسات ذلك على التشخيص وقراءة الحالة المرضية *l'état morbide* وكذلك تمتد في تركيب وهيكله أساليب العلاج الحديثة.

وفي سياق الحديث دائما عن تاريخ هذا الفكر والعلم الذي ارتبط بالحديث عن الإنسان والثقافة كان البحث في الطب القديم *la paliomedecine* بحسب الباليوناتولوجي يعرض لطرح العديد من الأسئلة أهمها: هل كان إنسان تلك الحقب التاريخية يستخدم الأدوية مثلا؟

- فهنا لا تقدم إجابات جازمة لكن تؤكد حفريات الهياكل العظمية المكتشفة، أنه كان يعرف كيف يرد كسور العظام بتثبيت العظام المكسورة بواسطة نوع من الأعشاب وخيوط النباتات⁽⁸⁾. والتردد كان أكثر عند الحديث عن تقويع الجمجمة التي التأمّت جزئيا على مدار حياة الشخص فهل هي إصابات عارضة؟ أم جروح متعمدة؟ خيم شك حول ما إذا كانت هذه التقويع لها معاني دينية، ترتبط بممارسات سحرية، أم كانت علاجا لمرض عصبي كالصرع أو الشلل. وهنا يطرح افتراض أن الإنسان القديم كان يرجع الإصابة بالشلل إلى المخ، فهل كان يريد بتلك الممارسة معالجة الاضطرابات العقلية؟ فنظل الأسئلة تطرح لكن أمام إجابات تخمينية دون الموضوعية واليقينية، وتحفظ العديد من المتاحف الأثرية التاريخية بنماذج لهذه الجماجم ويعلن عدد من العلماء مجموعة من النظريات التفسيرية لهذه التقويع التي ما زالت بعض القبائل تمارسها في إفريقيا السوداء حيث المرتكز التفسيري للعديد من الأمراض والاضطرابات تُعزى لجوانب فوق طبيعية أو قوى فوق طبيعية⁽⁹⁾، ويقود المنعرج التاريخي هذا إلى محطة تحليلية أخرى أكثر عمقا في تتبع ملامح وآثار الفكر الطبي في ثنايا المسار التاريخي والانثروبولوجي للإنسان للغوص في عمق الثقافة.

2- حقائق وفولكلوريات في الطب القديم:

هنا يُمثّل الدين والسحر والطب أوائل المعارف التي مارسها الإنسان الأول، وقد ترابطت فيما بينها فلا يخلو طرف منها من مثل ملامح أحد الطرفين الآخرين ولا شك أن الطب وُلد بشكل تدريجي وبدوافع غريزية، في حين تجد كل من الدين البدائي والسحر نوعا من التحايل الإرادي للسيطرة روحيا على المجموعات البشرية، وتاريخ ميلاد هذه المعارف الثلاث متداخل بحيث يصعب وضعها في تسلسل زمني. والمرجح أن الطب كان أول المعارف التي مارسها الإنسان فإذا اعتبرنا الاتقاء من الحر والبرد والاستراحة بعد التعب أو أثناء الحمى أو عند الإصابة بكسر في أحد العظام من الجسم ما هي إلا وسائل وطرائق وقائية، لحكمنا بذلك بأن الإنسان قد عرف ثقافة طبية وقائية أو صحية من خلال التكيف والعيش وإن كانت ثقافته هذه في أبسط صورها قد قلّدت في بعض منها الحيوانات فحاكي الإنسان طيور الحباري حيث تتغذى بنوع من البقوليات عندما تقاوت الأفاعي وعرف بذلك ترياقا من بقلة برية مقاومة للدغ وسموم الأفاعي فكانت هذه السلوكيات الغريزية والتقليد نوعا من ممارسة أولى خطوات المنهج العلمي في أبسط صورها حيث طبق الإنسان من دون تخطيط واع الملاحظة والتجربة. هذا إلى

جانب اعتماده على الأحلام والرؤى، التي لعبت دورا في حياة الجماعات الأولى أمام تجربة المرض، فيذكر علماء الطب الأوائل أمثال جالينوس والذي أورد في المحاكاة "أني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب بين السبابة والإبهام بين اليد اليمنى فلما أصبحت فصدت هذا العرق فسكن بذلك الألم⁽¹⁰⁾"، إلى جانب أن الصدفة والعفوية لعبت دورا كبيرا في اكتشاف أدوية جديدة للأمراض لم يكن يُعرف لها علاج من قبل ومثاله علاج الجذام الذي يعد من الأمراض العفنة والمتقلة بالعدوى وهذا المرض في وصفه يمثل حالة عامة محددة بنحول وهزال ودوخة⁽¹¹⁾ ناتجة عن الضعف والخور فتتم معالجة هذا المرض بلحوم الأفاعي وكان اندروماخوس (حوالي ق 2 ق م) أول من حضي بهذه الصدفة ومن يومها اعتبرت مُعالجة، واستعملها الكثير من أطباء العرب منهم ثابت بن قرة وابن سينا وابن المطران وابن البيطار وغيرهم.

كما تعرض فولكلوريات تاريخ الطب، مثل عامل آخر شكّل آلية من آليات التعامل مع الصحة والمرض وبالتالي الطب والعلاج ويتمثل هذا العامل في الاعتقاد في الأرواح الشريرة كمسبب للمرض وهي نُقطة نوعية من الممارسة الغريزية للاستشفاء إلى بداية الولوج في عالم التّطبيب⁽¹²⁾، وكان هذا البعد الميثي، هو الدافع الأساسي لبروز الممارسات السحرية والطقسية؛ وأصبحت آلية الشعوذة هي المُعول عليه في علاج الأمراض، فكان الطبيب هنا هو الساحر أو الدجال Charlatan، وفي ذات السياق برز الدين في عقيدة الإنسان ليكون هو الآخر عاملا أساسيا ضمن التقاليد الطبية Les traditions médicales والأنشطة العلاجية Les activités thérapeutiques فساد الاعتقاد بأن الأمراض هي ترجمة لغضب الآلهة؛ ليكون هذا الفهم - ذا البعد الثقافي المعتقد - للمرض مدعاة لأسلوب علاجي تمثّل في التّعبّد بأشكاله، واستمر هذا الوضع طويلا ولا يزال إلى الآن في المجتمعات الحديثة والمعاصرة كامتداد مباشر لتقاليد طبية، واندرجت هذه الآلية الشعائرية ضمن دوائر الطب الشعبي Médecine populaire ليقابل هذا الخطاب العلاجي ذو البعد الثقافي ما يطرحه الطب ذو النمط الغربي، المؤسس على البراهين العلمية والمنتج بحسب علماء المنهج للمعارف القطعية⁽¹³⁾ Connaissances formalisées وليدة العقل العلمي. واستطرادا للحديث ضمن هذا السياق التاريخي برزت أولى أنماط الطب قبل العلمي، لتُترجم هذه الصور التاريخية بذور ومراحل جنينية للفكر والعلم الطبي الذي عرفه الإنسان منذ فجر التاريخ وقبل بداية التّاريخ معبرا عن مقدرته الإبداعية ليمثّل ومن خلال الفاعلية الثقافية الناتجة عن ممارسة الذات البشرية للفكر أنماطا استنباطية وأساليب علاجية وتنوعات دوائية عرفها التاريخ الحضاري بتباين محطاته. وخروجا من ملامح الفكر الاجتماعي الحاوية للمعارف الطبية في عصور ما قبل التاريخ ومع الإنسان القديم يتبادر السؤال حول هذا الفكر والفن والعلم ضمن التسلسل الحضاري، أين سيرتبط تطور الإنسان ووعيه باعتماده على طريقة الفهم والتفكير في المجتمع ومدى التلاؤم مع المتغيرات في الوسط الذي يعيش فيه⁽¹⁴⁾. فكيف كانت حالة الفكر الطبي في حضارات الإنسان؟

ثانيا: الفكر الطبي في العصور القديمة والوسطى:

1- العصور القديمة:

أ- الطب في مصر الفرعونية (Egypte pharaonique): كانت حياة الإنسان المصري فيما يتعلق بالصحة والمرض والعلاج مرتكزة على أبعاد معتقدية وطقسية، حيث كانت الرُقى والعزائم أساس الطب المصري القديم لاعتقادهم أن الأمراض من الآلهة فلا تُشفيها إلا التّوسلات لها، فكانوا يلجأون إلى الكهنة ليُقرّبهم منها، وأول طبيب عُرف باسمه من المصريين هو (امتحب) الذي عاش حوالي 30 ق م، وأكثر ما ميز هذه الحضارة

اشتهارها بعلم التحنيط⁽¹⁵⁾ للاعتقاد ببقاء الأجسام وعودة الأرواح وامتزج عندهم المعتقد بالطب وبتجرمه كون الكهنة في هياكلهم أطباء وفي الآثار القديمة صور لأقدم جراحيهم من الكهنة: يفصدون ويبضعون ويكُونون في نقرة القفا والصدغيين والصدر، وقد كتبت أسرار صناعتهم على جدران هياكلهم بلغتهم الهيروغليفية (المقدسة) ولكن اعتمادهم على أن الطب من علم العبادات وعلم السحر والكهانة والتنجيم والرقى، أضعف التقنين في الطب عندهم، أما تقنيا فاستخدموا العقاقير وبعض الأدوات الجراحية مثل: "الحجر الإثيوبي" أو الحبشي وهو عبارة عن صيوانة حادة تستخدم في شق الخصرة اليسرى، لنزع الرئتين والأحشاء من ذلك الشق من الجسم هذا عبر مستوى من مستويات عملية التحنيط، وعرفوا الرياضة البدنية حتى قال هيرودوت إن المصريين كانوا بصحة المزاج ثاني الليبيين. ولاشتهار حضارتهم في فنون الطب خُصصَ درج مصري في متحف برلين الألماني ويحوي "رسالة في التشريح ترجع لأوثيس بن مينا ويُعد أقدم وأول كتاب طبي جراحي في العالم. كما يذكر هيرودوت أنهم عرفوا التخصص فكان الأطباء: الرمدين لكثرة أمراض العيون وأطباء الأسنان كثيرون عندهم لأنهم كانوا عرضة لنخر الأسنان بسبب رطوبة المناخ (عامل إيكولوجي) فعرفوا أمراضا ارتبطت بنوعية البيئة، كما عرفوا الكيمياء لإعداد العلاجات، وكان أطباء الفراعنة ثلاثة أقسام: الطبيب العادي، والراقي والمشعوذ أو الساحر.

ب- الطب عند العبرانيين (اليهود) Médecine judaïque:

أخذ العبرانيون الطب عن المصريين القدامى فانحصر بذلك الطب عندهم لدى الكهنة والمُشرِّعين والملوك كما كان في مصر، وهو ما يترجم عملية التثقاف acculturations بين الحضارتين بالمفهوم الانتروبولوجي. فقد اقتبس العبرانيون الصناعة من تلك البلاد أيام استعبدوا فيها الفراعنة وتذكر أهم آثارهم الصحية في التوراة والتلمود⁽¹⁶⁾ أنهم أتقنوا الختان، واستعملوا فيها أداة الصَّوان، واعتمدت منظومة القرابة عندهم في موضوع الزواج على نمط الزواج الخارجي Exogamie عوض الزواج الداخلي endogamie لتقافة يتبنونها في هذا الجانب تُفيد كون زواج الأقارب يُورث الأمراض المتأصلة في الأسرة، وهم بهذا يتفادون ما يعرف بالأمراض الوراثية génétiques les maladies كما كانت لهم تدابير وقائية أهمها سياسة العزل لمرضى البرص الذي يعدونه من الأمراض المعدية والأمراض الوبائية Maladies épidémiques. كما انتشر عندهم نباتيون أشهرهم سليمان الحكيم الذي وصف النباتات وطرق الاستشفاء بها وبالتالي عرفوا أنماطا للعلاج تراوحت مصادره بين العشبي النباتي والحيواني، وأشهر نباتاتهم الطبية "البلسم" لمداواة الجروح، أما عن فئات المشتغلين بالميدان الطبي العلاجي عندهم فقد عرفوا جملة أطباء وقوابل وجراحون، وذكر "التلمود" كتابهم المقدس، الاستشفاء بالخمير والتحنيط بالطيب وذكرت التوراة فائدة المياه في شفاء الأمراض الجلدية، وهذا النمط العلاجي الطبيعي يقوم على تفعيل العنصر المعدني ويُعد العبرانيون أول من نقل قانون ابن سينا إلى العبرانية فاللاتينية واشتهر كثير من أطبائهم في الدول العربية شرقا وغربا.

ج- الطب عند البابليين والآشوريين والكلدانيين وبلاد الرافدين (Mésopotamie):

ارتقت الصناعة الطبية في "أشور" ق م بنحو ستة قرون، وفي آجر مكتبة آشور مئات الأبحاث، ومن علاجاتهم التخمير (التسميد) والدلك بالبصل للمصاب بالصفراء والمصاب بالزحار (نوع من أمراض الحساسية الجلدية) والعلاج بالماء البارد، ومن أعظم أدويتهم زيت الزيتون وزيت الخروع، وشراب التمر والعسل والملح... الخ وطبهم يغلب عليه العلاج الطبيعي ومبني على التجارب ومدون في الهياكل كما عرفوا التحنيط بالعسل والعلاج بالتعاويد والراقي والطلاسم والأحجية.

د- الطب في الحضارة الفارسية (persan):

لم تنشأ في بلاد فارس ثقافة طبية (علمية) إلا بعد دخول إسكندر المقدوني إليها حوالي العام 334 ق م الذي عمل على نقل كتب الطب والنجوم والحكمة الفارسية إلى اللسان اليوناني وبعث بها إلى بلاده فكان لليونانيين أخذ للعلم عن الفرس، وكما يذكر المؤرخون أنه ليس مستبعداً أن تكون بعض المعارف المنقولة من فارس إلى اليونان ذات أصول هندية ترجع لعمليات التثاقف المُسهّم في عملية التغيير الثقافي لبني السوسيو ثقافية للمجتمعات، وكان الزرادشتيون من الطبقات الفارسية التي اهتمت بدراسة الطب وبرزت فيه وصار من بينهم ثلاث طبقات من المعالجين، إحداهما تعالج بالأدوية والصلوات والأخرى بالأغذية والعقاقير وثالثة باستعمال الأدوات أي بالعمليات الجراحية، ولم يتبلور الطب بشكله العلمي في بلاد فارس إلا إبان حكم "الساسانيين" وكان الاهتمام ببناء الماريسيتانات كدور استشفائية وكان لهذه الحضارة آثار مكتوبة وصل منها للعرب في القرن الثاني هـ / الثامن م كتاب في الأدوية المفردة لمؤلف فارسي اسمه "قالهمان" وقد أخذ منه الرّازي في كتابه الحاوي ودخلت اللغة الفارسية العديد من الأدوية والأسماء الطبية، أما الممارسة فيعتمد أكثرها على الأسلوب اليوناني الذي تبرز فيه نظرية الأخلاط Théorie des humeurs والأمزجة والامتلاء والمعالجة بالمقبيئات والمسهلات والأدوية المُدرّة للبول والفضد والحجامة كما كانت للعلاجات الطبية بالتكميد والحمامات والرياضة والتغذية مجال واسع في الممارسة وتستعمل الأدوية المستخلصة من الورود والأعشاب بكثرة في معالجة اضطرابات الجهاز الهضمي، أما في الطب الجراحي فلم تطبق فنونه بعمق، بل اكتفوا ببتير الأعضاء وشق المثانة وقلع الضرس، . وبقيت مدرسة "جند ياسابور" و"بيمارستانها" تجتذب المتعلمين لتعلم صفة الطب داخل فارس وخارجها حتى بعد الفتح الإسلامي عام 17 هـ / 638 م.

هـ- الطب اليوناني (grec):

ينسب إلى الحضارة الإغريقية أو اليونانية أعظم ثلاثة أطباء في الحضارة الإنسانية وهم: أبوقراط وجالينوس وأرسطو وكان مُرتكز الطب على النموذج الأبوقراطي modèle hippocratique والجالينيوسي، وطرحوا نظرية الأخلاط التي تضمّنت معارف عن وظائف الأعضاء وكان للفكر اليوناني أن امتزج بالفكر الديني وكانت آلهة الطب عندهم **اوبولو** وامتزج الفكر اللاهوتي عندهم بالأسطوري، يروي هذا الفكر أن ابن الإله اوبولو اسقليبوس تعلم الفلسفة بإلهام سماوي وتعلم الطب بالتجربة وصار بعدئذ رئيساً لسلالة كبيرة من الحكماء الأطباء هي التي قوّمت الحضارة اليونانية في الطب والفلسفة وكان هذا الطبيب الأول جوالاً يحمل في يده عصا لشجرة الختمي وهي كثيرة الفوائد في الطب وصور عدد آخر من الإخباريين أن عصا الإله تلتف عليها أفعى، وتذكر الانتروبولوجيا في قراءتها لعالم الرمز والأسطورة أن هذه العصا تترجم الفن الرصين الذي يتكأ عليه الطبيب الحاذق والأفعى في بعدها الرمزي تترجم مثل معاني في الذاكرة الشعبية للشعب اليوناني تحمل التّيمّن بطول عمرها وترياق سمها وإشارة إلى الطب الذي لا يببّد أو يندثر. وصورة الأفعى كانت عند البابليين قبل القرن العاشر وحتى الهنود رمز الصحة والشفاء، وعبر تاريخهم أقام اليونانيون بعد موت اسقليبوس معابد رمزية، ليستشفى بها المرضى ليلة أو ليلتين وينقلوا إلى كاهن المعبد ما يروونه بأحلامهم فيزعم كاهن المعبد في قراءته بعد سماعه لرواية الحلم مؤشرات إلى سبب مرضهم وطريقة علاجه . وانتقل اليونانيون في صنعتهم الطبية من التجربة إلى القياس لاحتمالية الخطأ في الفعل الطبي كما عرفوا التخصص في المهن الطبية فكان منهم من اشتغل بالجراحة وآخر بالتفصد وآخر بالكي وآخر بأمراض الكلى، وآخر بطب العيون وكذلك جبر العظام ورد خلوع المفاصل هذا

مع أفلاطون الأول، حتى ظهر أبوقراط وهو المعروف بإمام الأطباء (17) فعمل بالتجربة والقياس معا وثبتت قواعد الصنعة الطبية على أسس علمية التي كانت من قبله آخذة بقوة من الأسطورة والدين قبل تحولها الكلي مع قيام الطب الأبوقراطي وطب جالينيوس⁽¹⁸⁾. ولم يخلو هذا الأخير من الفكر الفلسفي ويطرح مبدأ كون الإنسان هو محور الكون وكان هذا المبدأ والفكرة الفلسفية لها أثرها في الفكر الطبي في مستوى ربط الإنسان بالكون ومثال ذلك الطرح الذي يرى أن انسجام الخصائص الطبيعية الأربع: "الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة" والعناصر الطبيعية الأربع: "الماء والهواء والتراب والنار" التي يتكون منها الكون وما فيه من حيوان ونبات وجماد والأمزجة الأربعة والأخلاط الأربعة، لتخريج نظرية تفيد بأن الانسجام l'harmonie بين عناصر الجسم الأربعة هو الذي يُقَوِّم الصِّحة⁽¹⁹⁾ ومع أبوقراط (460-375 ق م) تأسس النهج العلمي في الطب ووضع "القسم المعروف" باسمه، فكان أول من نادى بعزل الطب عن السحر والدين، ووضع له قواعد تعتمد على الملموس والمعقول لا الحدس والخيال وأول من كان له مكان خاص يدخل إليه المرضى للمعالجة وكان هذا المكان هو البستان المجاور لبيته، يطرح طبه المنافع شملت كل أساليب الحياة. وبدأ أبوقراط في العلاج بمعرفة سبب المرض أولاً وجعل ذلك مفتاح السر لتحقيق شفاء المريض وقال "كل مرض معروف السبب موجود له شفاء" واعتمد في تشخيص الأمراض وعلاجها (القياس والتجربة) وتقوم فلسفة الطب عنده في ناحيتها التطبيقية على "معاونة الطبيعة" على قهر المرض من بين توجيهاته التحذير من الانقياد للشهوات إذ هي مصدر الأمراض فقال: أمهات اللذات أربع: لذة الطَّعام، لذة الشَّرَاب لذة الجماع لذة السَّماع " كما قال في الطعام الإقلال من الغذاء الضار خير من الإكثار من النافع كما كان يعتقد بأن الأمراض والأدوية والمرضى من طبيعة واحدة هي المكان الذي تقع فيه هذه الفئات الثلاثة فأوصى أن يتداوى كل عليل بعقاقير أرضه إذ إنها منبع العلل ودواؤها وحتى هذه الحقبة التاريخية ليس بالإمكان الحديث عن النظرية الطبية بالمفهوم الحديث والمعاصر القائم في ظلَّه علم الطب حتى وان كانت الأدبيات الفكرية الإغريقية بعثت لتشكيل هذه النظرية أرضية معرفية لكنها ظلَّت ممتزجة بالفكر الفلسفي فكانت النظرية الطبية (في الفلسفة الإغريقية) شاملة تُشير إلى أسباب المرض لتكون هذه المحطة مُمهِّدة لبروز علم أسباب المرض l'étiologie وبرزت إجمالاً في مجموعتين الأسباب الطبيعية والأسباب غير الطبيعية ليعمل التفسير- المعتمد هنا إذ اندرج ضمن المجموعة الأولى - على أخذ العلاج باعتماد الطب الحيوي la biomédecine وإذا اندرج التفسير في النظر في الأسباب غير الطبيعية فيكون البحث في العلاج ضمن دوائر العلوم الإنسانية كعلم النفس la psychologie وعلم الاجتماع la sociologie وعلم الإنسان l'anthropologie⁽²⁰⁾ السخ. فالفهم الأبوقراطي يتصور الجسد ووظائفه وأعضاءه غير منفصلين عن الكون والطبيعة، فالجسد خاضع لنفس القوانين والنواميس. واعتبر أبوقراط الصحة "حالة التوازن والانسجام بين العالم الداخلي والخارجي" أما الحالة المرضية فتترجم وتُوصف على أنها "حالة عدم التوازن حيث لا نستطيع العودة أو الرجوع للانسجام l'harmonie"⁽²¹⁾ وقد عمد أرسطو على وضع أسس وقواعد أبوقراط أو الطب الأبوقراطي في كتاب أطلق عليه أو على هذه القواعد "الطبيعة الشافية" natura medicatrix وهو ما تأسس عليه حديثاً الطب الترقبي أو الانتظاري médecine expectative الذي سيتجاوز مع تقدم تاريخ العلم الطبي إلى طب تدخلّي interventionniste m. يُبادر إلى تدخّل مباشر في المسار التطوري للمرض على أمل إيقافه عبر بتر واجتثاث العضو المريض أو العنصر الباثولوجي المسبب للمرض والمنتج له، وهذا الاتجاه الحديث له هو الآخر جذوره الفلسفية فيرجع لطب جالينيوس الذي يرى أنه في حالة المرض تُعدّل الأخلاط وذلك بالاستفراغ من خلال عملية

القيء أو الإسهال أو التقيؤ أو النزيف، كما أنه طرح فهمه الأداتي للجسد حيث قال: " إن لكل عضو وظيفة" وهو الطرح الذي سيُطوره ديكرات من خلال مفهوم الجسد الآلة أو مشابهة الجسد بالآلة le corps machine الذي ارتبط كمفهوم علمي في سياق نشأته بثورة علمية وطبية révolucion medical et scientifique.

و- الهند القديمة inde ancienne:

طورت الأهالي والشعوب القديمة في حاضرتهم (مدينتهم) طباً شعبياً عرف "بالايروفيدا" يؤسس تشخيصه على دراسة التيمن والنذر ويعمل بالعرافة والتكهن، كان مهياً بصيدلية متنوعة، كما ميز طبهم فن الجراحة، وكان لهم اعتقاد أن العلل جميعها تولد مع الإنسان، وتظهر إما عن الذنب أو فساد الأخلاط، وهو ما يُترجم البعد المعنوي في ثقافتهم الطبية وهناك إشارات أن الهنود استعملوا التلقيح ضد الجدري ومارسوا عمليات التجميل وترقيع الجلد والتوليد عن طريق البطن (العملية القيصرية) ورتق الفتوق واستخراج الحصى من المثانة وتحضير السموم ومضاداتها، وكانت لديهم أدوات جراحية، وأهم مدوناتهم في معارفهم الطبية تبدأ بكتاب "إترافا- فيدا" في هذا الكتاب قائمة بأمراض مقرونة بأعراضها لكنها محاطة بكثير من السحر والتعظيم، فقد نشأ الطب ذيلاً للسحر، والقائم بالعلاج هو الساحر أو الدجال أو الشّامان، حيث يدرس ويستخدم وسائل جثمانية لشفاء المريض، كما يوجد ملحوظ يسمى "اجو- فيدا" ومعناها علم إطالة العمر ليذهب هذا الطب الهندي القديم إلى أن المرض يسبب اضطراب في واحد من العناصر الأربعة (الهواء، الماء، البلغم، الدم) وطرق العلاج هي الأعشاب والتمايم السحرية، ولا زال كثير من أوجه هذا الطب إلى اليوم في الهند، ففي كتاب "رج- فيندا" نحو ألف اسم من أسماء هذه الأعشاب ويعرض الماء على أنه خير علاج لمعظم الأمراض وأعظم أسماء في الطب الهندي "سوشروتا" في القرن 5 ق م، و"شراكا" القرن الثاني بعد الميلاد.

ي- عند الرومان:

اشتهر الرومان باستعمال الحمية والرياضة والحمامات الساخنة بدل العقاقير المختلفة إلا عند إجراء عمليات جراحية مثل: الأورام السرطانية كما أن لهم سمعة جيدة في أعمال الموسيقى وبعض المهنات والرياضة لعلاج الأمراض العقلية من أشهر أطباؤهم اليوناني "جالينوس".

2- العصور الوسطى:

أ- الطب العربي الإسلامي: M. arabo-islamique

كان التطبيب في الجاهلية على شعبيتين، شعبة تقوم في جوهرها على الكي بالنار لاستئصال الأطراف الفاسدة والتداوي بشرب العسل، ومنقوع الأعشاب النباتية الطبية واللجوء إلى التمايم والتعاويد على يد الكهان والعرافين وشعبة تتجه في علاجها إلى الحمية، وعلى إسداء النصيحة وليدة الخبرة مثل: أن العسل يُعد العلاج الأساسي لأمراض البطن، كما كانت لهم أعمال جراحية مثل: الحجامة، الكي، البتر، الفصد، واحتكرت معرفتهم الطبية على ما اختزنته ذاكرة الحكماء عندهم ودونه الشعراء في قصائدهم. ولم يكن طب العرب قبل الإسلام إلا طباً شعبياً ينتقل بالممارسة والتعلم، من جيل إلى جيل⁽²²⁾، كما استخدموا العلاج بالسحر والطلاسم والدجل والشعوذة ونُسبت الأمراض إلى الشياطين، وهو الطب الشعبي الذي سينقح بعد معرفة الشعوب العربية للإسلام فقبل بعثة الرسول {صلى الله عليه وسلم} كانت ممارسة الطب في الجزيرة العربية أكثر شيوعاً بين العرافين وفئة الممارسين وكان لكل قبيلة عراف ينزل منزلة الكاهن احتراماً وتقديراً، أما عن فئة الممارسين التجريبيين فقد اعتمد الأساس المادي في التطبيب عبر الكي والبتر والفصد والحجامة والعقاقير والأعشاب الطبية⁽²³⁾ وبمعرفة هذه الشعوب

للدين الإسلامي فقد أدخلت تغييرات على معارفهم الطبية بان حرم الدين ما تعلق بالسحر والكهانة والعرافة ونهى عن استخدام المسكرات، كباعث على التداوي والتطبيب، وأعلى من شان الممارسة الطبية القائمة على التجربة والقياس وبذلك أسهم هذا الدين الوافد على فتح الباب أمام الطب التجريبي والقياس، وكون الطب موضوعه الإنسان طرحت الثقافة العلاجية المتبناة في الشريعة الإسلامية رؤية خاصة جمعت بين حاجة الجسم والروح، فأرست العديد من القيم واعتبرت العناية بالجسم ومطالبه ضرورة لتحقيق سعادة الإنسان وجعلت حفظ النفس أو الحياة من مقاصد شريعتها، وأهم دليل عليه "تحريمها لشرب الخمر وممارسة الزنا وتشريعها للصوم وسنة التطهر والنظافة وممارسة شعيرة الصلاة تعبداً؛ هذا ناهيك عن ما تحمله من معاني إيمانية - التي تخاطب مباشرة الإنسان لتعديل سلوكه - والمتضمنة لأبعاد تبعث على التوازن النفسي والانسجام الروحي، فدخل هذا الأمر ضمن اهتمامات علوم حديثة منها علم النفس الإيجابي والبرمجة اللغوية العصبية وعلم الأعصاب. ولعل من النصوص النبوية البارزة في التطبيق وممارسة الطب التجريبي العلمي ما رواه جابر (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم { أنه قال: " لكل داء دواء فإذا أصيب الدواء للداء برأ بإذن الله " وروى أسامة بن شريك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تداواوا فإن الله لم يجعل داءً إلا وجعل له دواءً غير داء واحد الهرم"، كما تجدر الإشارة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عرف عليه التداوي بالعسل والتمر والأعشاب الطبية وأهم علاجاته الحجامة وغيرها مما عرف بالطب النبوي وحفظ الصحة والوقاية من الأمراض، وتقوم أصلاتها على ما ترتبط به من مصدر والممثل في القرآن الكريم، كما كان شخص الرسول {صلى الله عليه وسلم} أنموذجاً قولياً وفعلياً وتقريرياً ينهل من (القران الكريم) ويعلم الناس فقه الحياة وثقافة العيش القويم وبالتالي الصحة والسلامة العقلية والبدنية ووصلت عديد المعلومات عن طريق الرواية في هذا المجال وجمعت ضمن تراث الطب النبوي وألف علماء الإسلام إلى اليوم هذا مؤلفات قيمة فيما يتعلق بتراث الطب النبوي والشيء القليل من هذه المؤلفات التي مازالت مخطوطة قد حظي بالتحقيق وظهر إلى عالم العلم (24)، ويحتوي الطب النبوي على سبيل المثال موضوعات: الطب الوقائي، التداوي عن طريق الرقية والانتفاع بالأغذية والنباتات، الحجامة، هذا إضافة إلى ما تحتويه المعاني الإيمانية والمترجمة لروح العقيدة الإسلامية من قدرة على تحقيق حالات التوافق النفسي والانسجام الروحي والصفاء الذهني ذلك للأفراد إذا ما تخلقوا بخلق الإيمان والإسلام والإحسان وهي ركائز تحقيق المعتقد الديني (دين الإسلام)، وهذا ما يكون من خلال عيش التجربة الإيمانية والتي تمرر للناشئة عبر آليات التنشئة الاجتماعية *la socialisation*. وربطاً لهذا الطرح الأخير بقضايا الصحة والمرض، فعدد الدراسات الحديثة في علم النفس والسلوكيات وعلوم التربية والصحة النفسية تُقر حقيقة بمدى ارتباط السلوك الديني في علاقته بالجانب الروحي النفسي والعقلي ذلك بمسألة الصحة والاعتلال، وهو الأمر الذي تؤيده الإحصائيات الحديثة لمنظمة الصحة العالمية في تقاريرها السنوية والتي تطرح كون "القلق والكآبة والخوف وغيرها من الأمراض النفسية تمثل العوامل الأولى للأمراض العضوية *maladies organiques* والمزمنة *chroniques* وعلى رأسها مرض السرطان، كما تتسبب كذلك هذه العوامل السابق ذكرها في ظاهرة الانتحار والذي يصنف هو الآخر كسلوك مرضي، وبالتالي فالحديث عن الدين *religion* كشرية أو أسلوب حياة محطة تستوجب النظر إذا ما تعلق الأمر بقضايا الصحة والمرض.

ومما سبق، وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن تقدم الحضارة الإنسانية عبر الزمن والتاريخ مرتكز على ممارسة الفكر عبر الفاعلية الثقافية وهو ما يُذكر بطرح اوغست كونت مفكر الأنوار صاحب الفزيولوجيا الاجتماعية عند

حديثه عن مسألة التقدم الحضاري في ارتباطه بالتقدم الفكري والتي عرض لها في حديثه عن مراحل تطور العقل الثالث من الخرافي والميتافيزيقي إلى اللاهوتي ثم الفلسفي فالعلمي وهو ما يُجسده تاريخ العلوم ومنها الطب وقد عُرِض لمساره منذ فجر التاريخ ثم العصور القديمة فالوسيطه للتَّعْريج للعصر الحديث والمعاصر.

ثالثا: المرحلة الحديثة والمعاصرة:

1- الطب الحديث والمعاصر: médecine moderne et contemporain

إذا عُدَّ المنهج التجريبي من ملامح الحضارة في القرن 17م فقد اقترن بتجديد العقل ليعرف الفكر والعلم في النصف الثاني من القرن العشرين تقدّمًا هائلًا ومنه علم الطب وذلك راجع لصلته المباشرة بعلاجيا وانطولوجيا وأخلاقيًا بالفرد البشري وبرز الطب العلمي مع ك. برنار Bernard في القرن 19م الذي لم يلتفت للأبعاد السابق ذكرها، لتُعَدَّ الآمال على المشروع المعرفي والعلاجي للطبّ الحداثي وذلك راجع إلى الفقرة النوعية التي نفذها ك. برنار والانتقال من طب انتظاري (ترقيي) يعود في أصله إلى التّصور الأبقرطي للطبيعة الشافية، إلى طب تتدخلي يبادر للتّدخل المباشر في المسار التطوري للمرض على أمل إيقافه، فقد كان الطب مع كلود بيرنار متقدما خاصة في مجال وظائف الغدد والأعصاب واكتشاف الوظيفة الجليكوجينية fonction glyco-génique ثم تعززت تلك الإنجازات مع باستور بالتهيئة لقيام الميكروبيولوجيا ثم اكتشف روتجن أشعة (x) ...الخ، ورغم كل هذه التطورات لم يصل الطب إلى القضاء التام على الأمراض الخطيرة والمستعصية التي ازدادت انتشارا مع قيام المجتمع الصناعي الحديث والظروف المرتبطة بالتحضر والتّصنيع في القرن 18 م، فالطب التّدخلي رغم نجاعته لم يستطع الاستجابة لتطلعات الإنسان الحديث بحسب علماء تاريخ هذا العلم وفلاسفته، بل تُسجَل حيال العلاج الكيماوي الذي تعتمد بالكمال الصيدلية الحديثة، تأثيراته الجانبية الخطيرة، بحيث كما يقضي على الخلايا المرضية السرطانية مثلا، فيقضي كذلك على الخلايا السليمة فضلا عن الأمراض التي يسببها على المدى البعيد، ونتاجا لهذا كان مع نهاية القرن 20 أن شهدت علوم الحياة والمباحث التي تدرس الإنسان ديناميكية وبدأت إرهاصات طب ما بعد حداثي ترتسم ملامحه العامة على الحياة وكانت مظاهره الطلائعية "الأبحاث المخبرية الناجحة" على الإنسان والإحاطة الشاملة بالبنية الكيماوية للحمض الريبي والكشف عن تراتبية الجينوم وكذا التحكم في خلايا المنشأ أو الخلايا الجذعية، وقدرتها على إعادة تكوين الأعضاء المريضة وكذا التمهيد للاستغناء عن العلاج الكيماوي، وتعويضه بالعلاج الجيني الذي سيعتمد على المخزون البيولوجي الوراثي للمريض⁽²⁵⁾ بما يقلل من نسبة الفشل الطبي إلى أدنى درجاته... الخ وهي تقريبا أهم الإنجازات التي يقدّمها الطب الحديث والمعاصر للإنسان الحديث والمعاصر.

2- نظرة تحليلية للمسار الكرونولوجي للطب:

كانت هذه التلميحات التاريخية جدّ المختصرة مُبَيّنة لمسيرة هذا العلم منذ بداياته الجينية عبر مسيرة الإنسان التاريخية والانتروبولوجية إلى اليوم هذا، حيث تشهد حضارة الإنسان عالم التّقانة (التقنية) والتكنولوجيا في أرقى صورها والملح العام لهذا المسار التاريخي يُعبّر عن المقدرة الإبداعية التي يتميز بها الإنسان وكل مرحلة من مراحل هذا المسار التاريخي والانتروبولوجي الطويل في جوهرها تتضمن أسس منطقية اجتماعية وثقافية تتبني عليها في حقيقة الأمر تلك الأساليب العلاجية والثقافات الاستنباطية التي كانت الجماعات البشرية تنتهجها وبصفة أعمق كان الإنسان يُبدعها من خلال الثقافة، ليعبر عن معنى وجوده وعن معنى العيش والحياة. فمكّنته إبداعيته الثقافية من ابتكار الطب وفنون العلاج فانقل من أعمال الغريزة والصدفة والمشاهدة إلى التقدم بالوعي

الاستنباطي عبر العامل المعنوي حيث الارتكاز على القوى الروحية في مواجهة معضلة المرض وأمن حالة الاستقرار بدل الخوف من خلال طقوسه الشعائرية فأوجد السحر وأوجد الدين كأساليب علاجية وسخر الطبيعة في ماديتها ولجأ إلى النباتات ليتداوى، واستغل المعادن والأحجار والأترية والحيوانات من محيطه البيئي، لتصل به فاعليته الثقافية وقدرته الإبداعية إلى فهم منطق الأسباب والنتائج فتقدم العقل ليعرف بعد الخرافة والسحر والدين والفلسفة العلم وبرز بعد هذه المسيرة الطويلة من الطب إن صح التعبير عنه باللاتي - والمعبر عن روح البشرية فكراً ومعتقداً والمعروف بالفلكلوري أو الشعبي أو الثقافة الشعبية وهو كذلك الطب البدائي أو العرقي أو السلافي فكلاً معبرة عن الطب قبل العلمي وعن إبداعية الإنسان - فقد برز بعد هذا النمط من الطب، الطب العلمي، ليتجاوز أنثروبولوجية الإنسان المعبرة عن عمق حقيقته، ذلك عندما ارتكز على فيزياء الإنسان ولم يرتكز على ثقافة الإنسان، ارتكز على الإنسان المادة ولم يرتكز على الإنسان النفس أو الروح ليكون هذا الفهم للطب العلمي المعتمد على فيزياء الإنسان مولداً لمفاهيم المرض وقراءته وباعثاً للأساليب العلاجية المرتكزة على الإدراك الميكانيكي للإنسان، لتشبّه الحركات الفيزيولوجية وانغراسها التشريحي والوظيفي بألة معقدة جداً ولهذا كان المسعى أن يعرف هذا الطب صيرورة تصنيف الأمراض وردود فعل الجسد⁽²⁶⁾.

وهذا المرتكز المنهجي في النظر للمرض والمريض هو ما يحمل إن جاز التعبير بذور أزمة الطب الحديث والمعاصر ذلك أن القلق الحالي للطب وأكثر منه قلق طب الأمراض العقلية والنفسية وتدفق المرضى نحو المطيبين والممارسين للعلوم الطبية المسماة بالموازية، تشهد حالياً اتساع الهوة التي انفجرت بين المريض والطبيب " وبحسب تحليلات دافيد لوبرتن David lepreton، إن هذا الموقف ناتج عن جهل الطبيب بالمعطيات الانتروبولوجية الأولى، إنه يتجاوز كون الإنسان كائناً له علاقاته ورموزه واعتقاده وأن المريض ليس إلا جسداً ينبغي إصلاحه⁽²⁷⁾.

كانت هذه الاعتمادات المنهجية والنظرية المتضمنة في الباراديغم الطبي العلمي (الحديث والمعاصر) وما تثيره من إشكالات مبعثاً لقضايا واستفهامات تُعنى بها علوم الإنسان وعلى رأسها السوسولوجي والانتروبولوجيا خاصة وقد أصبح المفهوم البيولوجي غير كاف لرسم حدود مفاهيم الصحة، المرض والعلاج والطب في حد ذاته وهو ما يدفع اهتمام المقاربة السوسيوانتروبولوجية للبحث عن دلالات هذه المفاهيم ويكون الإنسان في حد ذاته هو المرجعية .

والدليل على تزايد هذا الاهتمام هو تقديم وعرض منظمة الصحة العالمية لمفهوم الصحة، حيث حدّتها على أنها "حالة السلامة الكاملة سواء من الناحية الفيزيائية أو العقلية أو الاجتماعية ولا تكمن فقط في غياب المرض - أو عجزاً أو إعاقة"⁽²⁸⁾. وهذا الاعتماد الجديد لمفهوم الصحة يُخرج الإنسان (المريض) من النظرة الاختزالية للطب - ذات الخلفية الإرجاعية réductionnisme- إلى الأفق الثقافي حيث تكون الصحة مستبطنة في الذهنية الفردية والجماعية في شكل "وعي الحياة" والإدراك الإيجابي لسبل العيش عبر مختلف مسالك الحياة les allures de vie لترتبط الصحة بمفهوم لسواء يتجاوز النطاق البيولوجي إلى البعد الانتروبولوجي، ليحدّد هذا المفهوم إلى جانب أبعاده البيولوجية أبعاداً أخلاقية éthique، اهتمامها الإنسان الذي جعل منه أوغست كونت مشروعاً معرفياً ووضع هدف دراسته ضمن واقع أنشطته الحيوية والاجتماعية اليومية . وهذه المحطة الفكرية ضمن التراث الفلسفي والسوسولوجي، اهتم بإحيائها عدد من الأطباء والمربين في القرن 18م عندما طرحوا اهتمام "ضرورة البحث في التربية السليمة والصحة وذلك من خلال العادات الحياتية وما تعلق بها من مفاهيم l'hygiène de vie، وهذا

تمهيدا لأنتروبولوجيا إنسانية ومعيارية تتطلق من "تفكير الحياة"⁽²⁹⁾، فعبر نسيجها يتم توليف وضع أو حالة الصحة والمرض، فقبل أن تُحدد هذه الوضعيات في التركيبة البيولوجية للإنسان، فهي تجد التعبير الأمثل في الحياة الاجتماعية والثقافية وقياسا لهذا الحديث بواقع الطب اليوم فيترجم بعدا من نسبة مصداقية هذا الطرح اللجوء المعاصر للعلوم الطبية الموازية والتي تترجم انبثاق قيم صاعدة تنتظم أكثر فأكثر أشكال الحياة الاجتماعية منها " أولوية الفرد، الاهتمام بما هو طبيعي بالجسد وبالشكل، وتجميل الحياة اليومية بالجمال وان لم يعلن عليها بصوت عال لهذه العلوم الطبية (الموازية) إلا أن الافتتان بها واللجوء إليها يفترض وجود تباعد بين الطبقات الاجتماعية في موضوع المعالجة والصحة وبين أجوبة المؤسسة الطبية . والمتحولون إلى مجالات الاستطباق الخارجة عن نطاق الطب العلمي أو الرسمي لهم أسس منطقية واجتماعية وثقافية ينبني عليها توجههم الجديد، تفرض ضرورة النظر إلى تأثير ظاهرة الثقافة في الطب العلمي *influence de la culture sur la médecine Savant*، ولعل هذا الواقع المستجد هو ما جعل منظمة الصحة العالمية تُعنى بقضية الطب التقليدي، بل أشارت إلى أن تجعل منه موضوعا للأبحاث العلمية الجادة ورسمت له استراتيجيات لتُنقح معارفه وتُستغل في برامج الرعاية الصحية، وأدرجت المنظمة تحت هذا المصطلح "الممارسات والمعارف والمعتقدات في مجال الصحة، التي تُفعل استعمال مواد سواء نباتات، أجزاء حيوانية معادن وغيرها من الجمادات وكذا العلاقات الروحية والتقنيات والأنشطة اليدوية فردية أو جماعية ذلك للعلاج والتشخيص"⁽³⁰⁾.

وهذا النوع من الطب داخل في كل تراث البشرية فلا يخلو منه مجتمع من المجتمعات أو حضارة من الحضارات وتندرج تحته دوائر عدة منها "الطب الناعم *médecine douce* والطب الطبيعي *médecine naturelle* والطب البديل أو التناوبي *médecine alternative* والطب التكميلي *médecine complémentaire*"⁽³¹⁾. وهذه الدوائر العلاجية ضمن النسق العلاجي التقليدي والمتبني من طرف منظمة الصحة العالمية هو ما نتج عنه ما يعرف "بالتعددية العلاجية" *pluralisme médicale* بالواقع المجتمعي الحديث والمعاصر.

خاتمة

في رؤية ختامية لهذا الموضوع الواسع والذي يُعنى بالطب ضمن الخطاب العلمي والممارسة الثقافية ما يلاحظ من خلال العرض مرحليا لمساره الكرونولوجي- والذي انطلق من المسمى الإثني ليصل إلى التأسيس العلمي باعتماده المنهج العلمي في دراسته مُعضلة الإنسان مع المرض- أنه يواجه مسألة أمام تاريخه تفرضها طبيعة موضوعه التي أثارها المُشاكلة الأنتروبولوجية، ليعاد النظر في هويته المعرفية؛ وأن المُسميات الخارجة عن نطاق الطب الرسمي أو العلمي أو الغربي الحديث تمثل في عمقها ودلالاتها المرتبطة بسياقاتها التاريخية المراحل الجنينية للطب العلمي، وهذا سياق لاستنتاج فاعلية العقل الإنساني. أما عن عودة الأنماط العلاجية المندرجة في العلوم الطبية الموازية أو دوائر الطب الشعبي التقليدي ماهي إلا ترجمة لعودة انبعاث صور الطب في تلك المراحل الجنينية التي أسهمت في بروز الطب العلمي لتتيح له إعادة مسألة ذاته والنظر في أسسه المعرفية ومرجعياته التفسيرية ليجد جوابا عساه يُحقق هدفا طبيا حقيقيا ترتبط حقيقته بحقيقة الإنسان الممتلئة في كونه كائنا متعددا الأبعاد، بالتالي تتطلق رؤيته العلاجية من هذه الخلفية الأنتروبولوجية التي تعرض لمعيارية حيوية لدى الإنسان، تميزه بقدرة فعالة متعددة تصل لدى هذا الكائن لوعي ذاته ووعيه بالعالم الخارجي وهو ما يفتح الباب أمام الحياة الروحية *la vie spirituelle* والتي لا تقوم إلا بافتراض الميتافيزيقا⁽³²⁾، ليظل بذلك السؤال

الانثروبولوجي ملازما في عمقه للممارسة الطبية ضمن البعد الأخلاقي وهو ما قد يبعث على ضرورة السعي لإيجاد مقاربة جمعية *approche plurielles* بإمكانها فتح فضاء خصب يستفهم الإشكالات القائمة ويورث منهجيات جديدة تُحقق أهدافا أكثر فائدة وقيمة ضمن ميدان البحث في علوم الإنسان ومنها الطب من المنظور السوسولوجي والانثروبولوجي، وهذا الاهتمام المعرفي الجديد والذي يدخل في عمق الأهداف العلمية لسوسولوجيا الصحة *sociologie de la santé* وإن كان فضاءً علمياً حديث النشأة إلا أنه يُقدم في أبرز نتائج أبحاثه- والمتتبعة لمسيرة العلاج عبر مختلف المجتمعات والثقافات، تأكيد مصلحة "تعددية النماذج *pluralité des modèles*" من أجل تعريف وتحديد وتدارك المشكلات الصحية، لتطرح من خلاله سيولوجيا وأنثروبولوجيا الصحة على حد سواء، رؤى استشرافية سلبية أبحاث علمية، من بابها تقديم الفائدة وإنارة الطريق أمام السياسات الصحية المنتهجة أملا ورغبة في قيام منظومة صحية ذات جودة تتبنى استراتيجياتها على وعي الصحة كعطى اجتماعي لا بيولوجي فقط كما روج له نموذج الطب الحيوي. هذا بالإضافة إلى ضرورة الوعي كذلك بكون الطب كفضاء ممارساتي- يُعنى بقضايا الصحة والمرض والعلاج- لا يخرج عن نطاق كونه أحد النظم الاجتماعية التي تظل على علاقة تفاعلية مع باقي الأنساق والبنى السوسوقافية للمجتمع- يُغذي ويتغذى- أين تعمل الثقافة *la culture* وعبر مختلف قطاعاتها (المادي الاجتماعي والرمزي) على بعث مختلف صور النشاط البشري بما فيها النشاط العلاجي والممارسة الطبية.

الإحالات والهوامش:

- 1- Marc Renaud et Louise Bouchard: *Présentation technologies médicales et changement de valeurs*, université de Québec.
- site web /http//beblitheque.ucpe. p 08.
- 2- رشيد دحدوح: تاريخ وفلسفة العلوم البيولوجية والطبية قراءة في أعمال جورج كانغليم، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه دولة في الفلسفة، قسم الفلسفة، جامعة قسنطينة، إشراف البروفسور: زاوي بغورة، الجزائر، 2006/2005 ص 150، ص 151.
- 3- جون شارل سورينا: تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص، ت: إبراهيم الجلاتي، عالم المعرفة المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 2002، ص 11 (بتصرف).
- (1*) _ الباليوثولوجي: هو علم دراسة أمراض ما قبل التاريخ، والباليوناتولوجي: هو علم دراسة الحيوانات والأشجار القديمة، عن المرجع نفسه، ص 12.
- 4- (CRDI): *Centre de recherches pour le développement international: la médecine traditionnelle au ZAÏRE, services de la santé, OTTAWA, CANADA, 1979, p 17*
- 5- جون شارل سورينا: تاريخ الطب من فن المداواة إلى فن التشخيص، مرجع سبق ذكره، ص 14 (بتصرف).
- 6- رودولف سارا تشي: علم الأوبئة، ت: أسامة فاروق حسن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2010، ط 01، ص 15، 16.
- 7- يوسف سلامة: الثقافة بين الكوني والخصوصي، دار الفرقد للنشر والتأليف، سوريا، دمشق، 2008، ط 01، ص 27.
- 8- جون شارل سورينا: تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص، مرجع سبق ذكره، ص 15، (بتصرف).
- 9- Loïk j-van der ven: *maladie, remèdes et langues en Afrique centrale*, Jean-Marie Humbert, octobre, 1992, p 35.
- 10- كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال للطباعة والنشر بغداد، دون ذكر: ط و س ن، ص 21.
- 11- CRDI, *la médecine traditionnelle au zaïre*, *ibid*, p 17.
- 12- كمال السامرائي: تاريخ الطب العربي، مرجع سبق ذكره، ص 24، (بتصرف).
- 13- Antoine la saros, Gérard Delahaye: *Médecine complémentaires et alternatives, une concurrence à l'assaut de médecine de preuve*.
- 14- Pr .Chaumont, Jean. ambe: *Vers une définition de l'anthropologie, les champs et méthodes de l'anthropologie*, 2001, /http//fr.wikipedia .org/wiki/ l'anthropologie, p 18.10er.

- 15- جعفر مرتضى العاملي: الآداب الطبية في الإسلام، لمحة موجزة عن تاريخ الطب، دار البلاغة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1991، ط 01، ص 14 ص 15 عن: المفصل في تاريخ العرب في الإسلام، ج 8، ص 381.
- 16- عيسى اسكندر المعلوف: تاريخ الطب عند الأمم القديمة والحديثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2014، ص 9، 10، 13.
- 17- كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب، مرجع سبق ذكره ص، ص 61 إلى 88.
- 18- CRDI: la médecine traditionnelle au zaïre, bide, p 18.
- 19- Cédric poêlé avec la collaboration de Sylvie, Lyon: dans l'histoire mondiale de la santé une approche par les conceptions et les systèmes de la santé, mars, 2007, p 8.
- 20- Cédric poêlé avec la collaboration de Sylvie, Lyon: dans l'histoire mondiale de la santé une approche par les conceptions et les systèmes de la santé, ibid, p 11.
- 21- رشيد دحدوح: تاريخ وفلسفة العلوم الطبية والبيولوجية قراءة في أعمال جورج كانغليهم، مرجع سبق ذكره، ص 123 (بتصرف).
- 22- CRDI: la médecine traditionnelle au zaïre, ibid, p 06.
- 23- راغب السرجاني: قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع القاهرة، 2009، ط 01، ص 18 إلى ص 25.
- 24- المرجع نفسه: ص 30.
- 25- في صحيح الجامع (2930)، مصطفى خضر دونمز التركي: موسوعة الطب النبوي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، المجلد الأول، 2006، ط 01، ص، 8 إلى 15 (بتصرف).
- 26- رشيد دحدوح: تاريخ وفلسفة العلوم الطبية والبيولوجية قراءة في أعمال جورج كانغليهم، مرجع سبق ذكره، ص 1، ص 2.
- 27- دافيد لبروتون: انتروبولوجيا والحداثة: ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع بيروت، 1997، ط 01، ص 180.
- 28- أ.د. يوسف سعدون وآخرون: السياسات الصحية والصحة العمومية في الجزائر، مشروع بحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم علم الاجتماع، 1 /جانفي/2008/ 12/31 /2011، ص 9 (بتصرف).
- 29- رشيد دحدوح: تاريخ وفلسفة العلوم الطبية والبيولوجية قراءة في أعمال جورج كانغليهم، مرجع سبق ذكره، ص 411.
- 30- Stratégie de l'oms pour la médecine traditionnelle et complimentair pour 2014-2013.p 25
- 31- Antoine, pazaros, gerard Delahaye: médecine complimentair et alternatives, une concurrence à l'assaut de la médecine de preuves, p 8.
- 32- رشيد دحدوح: تاريخ وفلسفة العلوم الطبية والبيولوجية قراءة في أعمال جورج كانغليهم، مرجع سبق ذكره، ص 411.